نظرة في الجزء الثاني (*)

(من كتاب تاريخ آداب اللغة العربية)

٣

(أمثلة لكل نوع من الخطأ)

أقتصر في هذه المقالة على بعض نماذج من أنواع الخطأ في الامور الآتية ليكون القارئ على بصيرة من أمثالها فمن أمثلة الامر الاول (وهو الخطأ في الحكم الفني)

(١) قول المؤلف في صفحة ١٣٧ « وكان ابو حنيفة لايحب العرب ولا العربية حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به » (١) وعزا في الذيل هذه العبارة الى صفحة ١٩٥ جزء ثان ابن خلكان

فالذي يثق بالمؤلف يصدق عبارته هذه بعد ان تبرأ من تبعتها ونسبها الى مؤرخ عظيم ولكنه اذا راجع ابن خلكان في هذه الصفحة بل اذا قرأ ترجمة ابي حنيفة من أولها الى آخرها لم يكد يشم منها رائحة هذه الالفاظ بله المعاني . وكل ما ذكره هو العبارة الآتية —

« ولم يكن يعاب بشيء سوى قلة العربية فمن ذلك ما روي ان ابا عمرو بن العلاء المقرئ النحوي المقدم ذكره سأله عن القتل بالمثقل هل يوجب القود أم لا ؟ فقال لا كما هو قاعدة مذهبه خلافا للامام الشافعي رضي الله عنه فقال له ابو عمرو ولو قتله بحجر المنجنيق ؟ فقال ولو قتله بأبا قبيس . يعني الجبل المطل على مكة حرسها الله . وقد اعتذروا عن ابي حنيفة بأنه قال ذلك على لغة من يقول : ان الكلمات الست المعربة بالحروف وهي ابوه واخوه وحموه وهنوه وفوه وذومال اعرابها يكون في الاحوال الثلاث بالالف وأنشدوا في ذلك

(*) بقلم الاستاذ الشيخ أحمد عمر الاسكندري

(١) هذه العبارة مذكورة في تاريخ التمدن الاسلامي وقد انتقدها الشيخ شبلي النعماني راجع ص (٧٢) من الانتقاد على هذا الكتاب

ان اباها وابا اباها قد بلغا في المجد غايتاها

وهي لغة الكوفيين وابو حنيفة من أهل الكوفة فهي لغته والله اعلم »

هذه هي عبارة ابن خلكان بنصها فليقابلها القارئ بعبارة مؤلفنا وأترك الحكم له بلا تشنيع ولا تبشيع فهي وحدها كفيلة بكل ذلك .

على ان بعضهم قد أخذ على مالك ما أخذه خصوم ابي حنيفة عليه اذ قال في الموطأ « عليه هدي بدنة أو بقرة أو شاة ان لم يجد الا هي » بوضعه ضمير الرفع موضع ضمير النصب . ولو اطلع المؤلف على هذا الموضع لقال في مالك ماقال هو في الخمر

(٢) قول المؤلف في الصفحة المذكورة « وكان أئمة الفقه في المدينة فأراد المنصور تصغير أمر العرب وإعظام أمر الفرس لانهم انصارهم وأهل دولتهم فكان من جملة مساعيه في ذلك تحويل انظار المسلمين عن الحرمين فبنى بناء سماه القبة الخضراء حجا للناس (كذا) وقطع الميرة عن المدينة ونفيه المدينة يومئذ الامام مالك الشهير فاستفتاه أهلها في أمر المنصور فافتى بخلع بيعته فخلعوها وبايعوا محمد بن عبدالله من آل علي وعظم أمر محمد هذا وحاربه المنصور ولم يتغلب عليه الا بعد العناء الشديد فرجع أهل المدينة الى بيعة المنصور قهراً وظل مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس فعلم أمير المدينة يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك فغضب ودعا بمالك وجرده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه » فيفهم من هذه العبارة — :

أولا أن جمهرة أئمة الفقه كانت بالمدينة فقط

ثانيا المنصور كان يكره العرب كراهة حملته وهو خليفة المسلمين وأفقه أهل زمانه على أنه يرتد عن الاسلام ويحاول صرف المسلمين عن تولية وجوههم شطر قبلتهم وعن أداء فريضة هي أحد أركان الاسلام الخمسة الى قبته الخضراء التي بناها فوق قصره ببغداد

ثالثاً انه قطع الميرة عن المدينة لمجرد بغض الحرمين ولوجود أكثر أئمة الفقه في المدينة وهي نضل المدائن العربية ويستتبع ذلك ان يكون بغضه لمالك أشد منه لكل فقيه فيها لانه شيخهم العربي

رابعاً ان أهل المدينة استفتوا مالكا في خلع المنصور وبيعة محمد بعد قطع الميرة عنهم

خامسا ان مالكا افتاهم فعلا بذلك

سادسا ان المنصور لم يتغلب على محمد بن عبدالله الا بعد العناء الشديد أي بعد وقائع كثيرة وأزمنة طويلة

سابعاً ان مالكا استمر على عناده حتى فعل به جعفر بن سليمان مافعل

ثامنا ان وقوف المؤلف في العبارة عند هذا الحد يقتضي ان ذلك كان برضا من المنصور

وأقول —: ان كل هذه اللوازم باطلة اما عن الاول فلم تكن جمهرة الفقه خاصة بالمدينة بل كانت ضاربة بجرانها في مصري الاسلام — الكوفة والبصرة — كما كانت في الشام ومصر على كتب من ذلك وانما كان العلم بالحديث يغلب على فقهاء الحجاز والعلم بالقياس والرأي يغلب على أهل العراق وربما طرأت هذه الشبهة على المؤلف من قول مالك قصه في حديث له مع المنصور « وانما الفقه فقه أهل المدينة » يرجح مذهبه واخذه بالحديث ويضعف مذهب أهل العراق في أخذهم بالرأي وهذا أقل مايقول صاحب مذهب في ترجيحه والمعلوم ان ابا حنيفة واصحابه بالعراق اسبق من مالك وأصحابه بالمدينة اشتغالا بالفقه وتدوينا له

وأما عن الثاني —: فكيف يكره المنصور العرب هذه الكراهة وهو عربي وابن عم النبي العربي وخليفته في أمته وشريعته؟ وكيف يحاول تحويل المسلمين عن قبلتهم وشعائر حجهم الى قبته الخضراء على غضاضة الاسلام وقرب عهد الناس بنبيهم مع ان دعوة العباسيين لم تقم الا باظهار الدفاع عن حوزة الاسلام وتجديد شريعته وشعائره؟ وكيف يقع ذلك من المنصور وهو الذي حمل علماء المسلمين في جميع بقاع الارض على تدوين علوم الكتاب والسنة فكان عهده مبدأ لتدوينها باجماع المؤرخين ومنهم المؤلف

وبعد فلو كان كل ذلك قد كان فما الذي حمل المنصور على الحج الى بيت غير قبته حتى توفي في طريق مكة على اميال منها محرما ناسكا وكفن ودفن كذلك

هذا الى ماشتهر عن المنصور من الزهد وتشدده في أمر الدين فلم يسمع في داره لهو قط . والتواريخ مفعمة بمناقبه وانما كان الرجل ملكا ومؤسس ملك فاشتدت وطأته على أعدائه ومزاحميه من بني علي فأذاعوا عليه هذه الشنعة ليصرفوا الناس عنه كما صرفوا عن بني أمية بمثل ذلك ولانهم هدموا الكعبة فأخذ المؤلف هذه العبارة من بعض الكتب التي روت حديث الخصوم من غير تمحيص وتحقيق

وكيف يبلغ كراهة العباسيين للعرب هذا الحد وهم انما ولوا السفاح قبل المنصور

لان أمه عربية ، وولوا الامين قبل المأمون لان أمه هاشمية ، وكل من المنصور والمأمون أكبر من أخيه . وكانت ثقتهم بالفرس في ضبط الملك ترجح عن ثقتهم بالعرب لان أنصار بني أمية من العرب كانوا في مبدإ الدولة أقوياء الشوكة على ان هذا لم يدم اكثر من قرن ثم تحول الى الترك وغيرهم

واما عن الثالث — فيما فيه : ما تقدم واعتذار المنصور بعد لمالك عما وقع من جعفر وسؤاله العفو عنه بعد ان عزله عن ولاية المدينة واقدمه الى العراق على قتب ، ودعوة مالك الى تأليف الموطأ وقوله له : انه لم يبق على وجه الارض اعلم مني ومنك (اي بعلوم الفقه والدين طبعا) ودعوته له ان يقدم معه الى العراق وينشر علمه بها فابى مالك واختار جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأما عن الرابع — : فان المنصور لم يقطع الميرة عن أهل المدينة الا بعد مبايعتهم محمدا وان مالكا انما اثر عنه ذلك بعد قتل محمد وقدوم جعفر بن سليمان مجددا لبيعة المنصور

وأما عن الخامس — : فغاية ما روي ان مالكا سئل في يمين المكره : هل تقع ؟ فقال لا ، وكان جعفر أيام ذلك يأخذ الناس بايمان البيعة للمنصور طوعا وكرها فوشى بعض الناس الى جعفر بان مالكا لا يجيز أيمان بيعتكم ففعل ما فعل

وأما عن السادس — : فلم يدم امر محمد منذ ظهر بالدعوة الى يوم قتل أكثر من شهرين وسبعة عشر يوما ولم يزد الجيش الذي حاربه على خمسة آلاف رجل ولم يزد أصحاب محمد على نيف وثمانمائة رجل

واما عن السادس والسابع — : فهوم مما تقدم

(٣) ومن الخطأ في الحكم دعوى المؤلف في صفحة ٨٣ انه لم يبق من نظم إبان لكتاب كليلة ودمنه الا بيتان هما

هـذا كتاب ادب وحكمه وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب دفته الهند (كذا)

فالمؤلف لم يجد الا هذين البيتين في الاغاني فنقلهما محرفين وادعى لم يبق غيرهما مع ان كتاب الاوراق للصولي بدار الكتب الخديوية اي بمدة ابواب من الكتاب منظومة في اخبار ابان ومن العجيب ان المؤلف اطلع على هذا الكتاب ووصفه بما قدم عليه في صفحة ١٧٥ من كتابه هذا

ومن أبيات ابان غير هذين البيتين قوله

وقيل ايضا انه قد ينبغي للرجل الفاضل فيما يقتني

ألا يرى الا مع الاملاك او يعبد الله مع النساك
كالفيل لا يصلح الا ركبا لملك او راعيا مسيبا

(٤) ومن الخطأ في الحكم زعم المؤلف ان كتاب الادب الصغير والكبير والدرة منقولة عن الفارسية اي انها مترجمة عنها

اما الادب الكبير المطبوع في مصر وسورية باسم الدرة خطأ فقد صرح ابن المقفع انه من بنات افكاره (فليراجع)

واما الادب الصغير فشيء من عند ابن المقفع وشيء نقله عن غيره كما يعلم ذلك مما كتبه العلامة البحاثة احمد زكي باشا في المقدمة التي دبجتها يراعته لطبعة جمعية الدعوة الوثقى

واما الدرة اليتيمة فلم يعثر عليها احمد الى الآن وليست هي الادب الكبير كما زعم المؤلف في هذا الكتاب بقوله « كتاب الدرة اليتيمة ويسمى ايضا كتاب الادب الكبير » فقد نقلت كتب الادب منها قطعا لا توجد في الادب الكبير المطبوع باسم اليتيمة خطأ . ووصف المؤلفين لليتيمة لا ينطبق على الادب الكبير

هذا ولم يقل احمد ان اليتيمة مترجمة عن اصل فارسي الا المؤلف . وانما فيها بعض نقول عن قدماء الفرس كما يقع في اكثر كتبه

(٥) ومن الخطأ في الحكم عده طاهر بن الحسين فاتح بغداد وقاتل الامين في عداد المنشئين كتاب الرسائل مع ان هذا الاسم لا ينطبق عند علماء الادب الاعلى الكاتب في ديوان الرسائل الذي سمي فيما بعد ديوان الانشاء ولم يخدم طاهر بن الحسين الدولة منشئا قط كما لم يعرف له كتب ذات بال غير وصية كتبها لابنه عبد الله عند توليه ديار مصر ولم يكن طاهر الا قائدا عظيما واميرا داهيا . ولئن ساغ لنا ان نعد كل من خلف وصية مطولة بليغة في طبقات الكتاب لقد كان من الواجب ان نعد الامام عليا والمنصور العباسي والرشيد والمأمون من كتاب الرسائل مع ان لهم مجموعات من الرسائل وبينما نجد المؤلف لم يتكلم في العصر الاول العباسي إلا على طاهر بن الحسين وعمرو بن مسعدة من كتاب الرسائل اذ نراه اهمل ذكر جميع كتاب الرسائل المشهورين كعمارة بن حمزة وابي عبيد الله وزير المهدي والقاسم بن صبيح ويوسف بن القاسم واحمد بن يوسف ويحيى بن برمك وجعفر بن يحيى واسماعيل بن صبيح وابن الزيات وغيرهم وهم فحول البلاغة وفرسان الكتابة والكتابة صناعتهم

وصناعة آبائهم ولا يزال كثير من رسائلهم وكتبهم محفوظة في بطون الكتب والتواريخ لمن يريد البحث والفحص

ويشبه هذا عد المؤلف ابا العباس المبرد وابا علي القالي من علماء متن اللغة لان الاول ألف كتاب الكامل وفيه قصائد ومقطعات شرح بعض ألفاظها من اللغة وعده القالي كذلك لانه أملى أماليه شارحا بعض غريبها مع ان هذين الكتابين باعتراف المؤلف وكثير من أركان كتب الادب الاربعة مما كان أولى ان يعدها في طبقات مؤلفي الادب

وعده السكري من المؤلفين في الادب مع الجاحظ وابن قتيبة مع ان السكري لم يكن الا راويا للشعر جمع أشعار كل قبيلة أو شاعر في ديوان وليس له فيها غير الجمع ناقلا عن أئمة الرواة أو عن الاعراب وفي الكتاب من أشباه هذا كثير

(٦) ومن الخطأ في الحكم زعم المؤلف في صحيفة ٢٠٧ ان علم الكلام ومذهب الاعتزال نشآ في العصر الثاني من حكم بني العباس أي بعد ١٣٢ هجرية مع ان المشهور في التاريخ انه لما كثر المتزندقة والملاحدة في زمن المهدي أو عز الى العلماء ان يحاجوهم بالادلة العقلية ويدونوا في ذلك الكتب ففعلوا وسموا المتكلمين لأن علمهم من كلامهم لا من الكتاب ولا من السنة ونشأ من هؤلاء طبقة في زمن الرشيد ثم أعقبتها طبقة في زمن المأمون كان هو من كبارها ومنهم ثمامة بن أشرس وابو الهذيل العلاف وابراهيم النظام واحمد بن ابي دؤاد وغيرهم على ان المعتزلة من المتكلمين يبتدئ عصرهم من حياة واصل بن عطاء بل من قبله ايضاً

ومن العجيب ان المؤلف حينما أراد ان يترجم علماء الكلام ذكر واصل بن عطاء وهو من أهل العصر الاول بل هو من أدرك كثيرا من عصر بني أمية

(٧) ومن الخطأ في الحكم جعله ابا منصور عبد الملك الثعالبي صاحب يتيمة الدهر هو صاحب التفسير الكبير المعروف بتفسير الثعلبي والثعلبي هذا هو الامام الحجة الثبت ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبي المفسر المشهور ولعل الذي أوقع المؤلف في هذا الخطأ ان كلا الرجلين نيسابوري الموطن وانهما كانا متعاصرين وان وفاتيهما متقاربتان غير ان الاول أديب وهذا امام مفسر جليل وهما شهير ان في بابهما

وسنذكر في مقالتنا الآتية بقية انواع الخطأ التي أشرنا اليها في صدر مقالتنا هذه وكل آت قريب

***

ومن انواع الخطأ التي تضمنها الكتاب الخطأ في الاستنتاج ومن أمثلته ما يأتي :
ذكر المؤلف في صفحة ٢٣٨ الفصل الآتي بنصه وهو

« ٥ ـ طول القصائد »

وطالت القصائد في هذا العصر عما كانت عليه قبلا حتى كثرت فيها ذوات المئات من الابيات كقصيدة ابن عبد ربه وقصائد الوأواء ومع ذلك فان العرب لم يدركوا شأو الامم الاخرى في الاطالة كما فعل اليونان بالالياذ والأوذية والفرس في الشاهنامة وهو الشعر المعروف بالايوبة وتعد ابيات الواحدة بعشرات الألوف. على انهم ذكروا لابي الرجاء محمد بن احمد بن الربيع الاسواني المتوفى سنة ٣٣٥ قصيدة ابياتها تعد بالالوف ضمنها اخبار العالم وقصص الانبياء ومختصر المزني ويعد من هذا القبيل نظم كليلة ودمنة ونحوهما مما ضاع . ولكن ذلك منقول ليس فيه تفكير اي لم ينظمه الشاعر من بنات افكاره ولا يكون ذلك الا في نظم القصص الخيالية او نحوها »

فهذا الفصل على ما فيه من تضارب الاقوال وتناقض الاحكام يستفاد منه

اولا ـ ان القصائد العربية طالت في العصر الثالث من حكم بني العباس عن كل العصور التي سبقته حتى بلغ بعضها مئات من الأبيات

ثانيا ـ انهم مع ذلك لم يدركوا شأو اليونان والفرس في تطويل القصائد لأن تلك تعد بالالوف

ثالثا ـ ان العرب كان لها قصائد قبل هذا العصر تعد بالالوف ايضا ولكنها ضاعت كقصيدة الاسواني ونظم كليلة ودمنة وغيرهما

رابعا ـ ان العرب وان أطالوا في بعض القصائد لم يضمنوا طوالهم بنات افكارهم بل نقلوها عن أمم اخرى . وأقول :

أما الأمر الأول فأن أطول القصائد لم يختص بعصر دون عصر فقد ظهر امرؤ القيس في عالم الشعر تطول القصائد وتقصر وكفى بالمعلقات طولا وهي من نظم الجاهلية ولم يقصر الاسلاميون ولا المحدثون عن هؤلاء في الطول فقصائد جرير والفرزدق والاخطل والكميت ومروان ومسلم ودعبل وابي تمام والبحتري وابن الرومي والناشئ لا تقصر عن قصائد أهل العصر الثالث فلجرير ميمية تقارب مائة بيت وللفرزدق ميمية تزيد على مائة واربعين ولدعبل قصيدة في النصب اليمانية يرد بها على الكميت المفتخر بالنزارية تبلغ ستمائة بيت . وللناشئ قصيدة في فنون

من النظم على رويّ واحد تبلغ اربعة آلاف بيت وكل هؤلاء قبل العصر الثالث

واما عن الامر الثاني فان المؤلف لم يفطن للفرق بين الشعر العربي والاعجمي. فالشعر العربي تنظم القصيدة فيه من بحر واحد وقافية واحدة وروي واحد وشعر الامم الاعجمية ليس له قافية وان التزمت فيه القافية فلا تجاوز بضعة ابيات فالشاعر العربي اذا نظم قصيدة مائة بيت من قافية واحدة فتلك الغاية التي لا تدرك في شعر اي أمة اخرى واغلب شعر اليونانيين والفرس وأمم أوربة الآن من نوع الدوبيت والزجل او الشعر المسمط فهو مركب من ادوار وخانات . واذا لم يراع الشاعر قافية فالمائة والف الالف عنده سواء فليس عليه اي كلفة في الصناعة وانما يرجع الامر في ذلك الى طول الزمن وقصره كما نظم البستاني الالياذة من عدة بحور وعدة قوافٍ

واما الامر الثالث فلو علم المؤلف ان نظم كليلة ودمنة ونحوه ليس من نوع القصائد بل من نوع المزدوجات التي لا تكلف الناظم اكثر من قافيتين اثنتين في كل بيتين لم يكن يجشم التناقض والاعتذار الغريب في كلامه

واما الامر الرابع فلما رأى المؤلف على توهمه ان للعرب شعراً طويلا مثلما لعرس واليونان مما يعارض دعواه احتاج الى ان يبرر رميه العرب بالقصور وتهجين شعرهم بقوله « ولكن ذلك منقول ليس فيه تفكير » فلو اراد المؤلف بطوال الشعر العربي ارجوزة ابن عبد ربه في تاريخ الاندلس او علم العروض وارجوزة الاسواني في أخبار العالم وقصص الانبياء ونحوهما فهما لم تعدوا أغراض الالياذة والشاهنامة اذ الاولى في وقائع حروب رواده والثانية في تاريخ الفرس

على ان كل هذا الكلام جهاد في غير عدو فالطوال في العصر الثالث ليست من نوع القصيد بل من نوع الاراجيز وطوال الامم الأخرى لم يلتزم فيها قافية واحدة

***

ومن الخطأ في الاستنتاج زعم المؤلف ان التصوف لم ينشأ الا في العصر الثالث اي بعد سنة ٣٣٤ وينعي على ابن خلدون وغيره ممن يرى أن اشتقاقه من الصوف ويرى هو انه مشتق من كلمة (صوفيا) اليونانية

قال في صفحة ٣٣٢

« وعندنا انها مشتقة من لفظة يونانية الاصل هي (صوفيا) ومعناها الحكمة ويتركب منها ومن (فيلوس) بمعنى (فيلوصوفيا) اي محب الحكمة وهي بالعربية الفلسفة فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة الى الحكمة لانهم كانوا يعنون فيما يقولونه او

يكتبونه بحثا فلسفيا ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بلقبهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة الا بعد ترجمة كتب اليونان الى العربية ودخول لفظة الفلسفة فيها »

وأقول ان طريقة القوم قد اشتهرت بهذا الاسم قبل شيوع ترجمة الكتب اليونانية وانتشار الفلسفة ومن قدمائهم الذين اطلق عليهم اسم صوفية مالك بن دينار المتوفى سنة ١٣١ وابراهيم بن ادهم المتوفى سنة ١٦١ ورابعة العدوية المتوفاة سنة ١٣٥ وشقيق البلخي المتوفى سنة ١٥٣ وهو أول من تكلم في طريقة الصوفية وعلم الاحوال بخراسان والفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ وغير هؤلاء ممن ذكرهم القشيري وغيره في تعداد سلف الصوفية الصالح

فلو كان الامر كما زعمه المؤلف من انهم لم يعرفوا بهذه الصفة الا بعد ترجمة الكتب اليونانية وشيوع لفظ الفلسفة فيها أي في أواسط العصر الثاني فلم لم يسموا فلاسفة اذ « كانوا يبحثون فيما يقولونه أو يكتبونه بحثاً فلسفياً ... » ولم لم تسم الفلاسفة صوفية لانهم أيضا يبحثون فيما يقولونه أو يكتبونه بحثا فلسفيا ! وقد كان الكندي وهو أقدم من اشتغل بالحكمة يسمى فيلسوف العرب ولم يسم صوفيّ العرب

وبعد فلو كان هذا الاسم قد عرف بعد ان عرفت الفلسفة وعرف اسمها وما أخذه فلم أبهم اسم الصوفية على كثير؟ والحقيقة ان طريقة القوم بمعزل عن الفلسفة وهم كانوا أشد الناس انكارا على المتفلسفين وان اسمهم مشتق من الصوف لمداومة أكثرهم لبسه تقشفا وتخشنا

(٢) ومن امثلة الخطأ في الاستنتاج دعوى المؤلف خمول اسم بشار الشاعر المشهور قال في صفحة ٦١ « ولم يخرج في دفنه أحد لانه مات وخصمه الخليفة وربما هذا هو السبب أيضا في خمول اسمه مع تبرزه في الشعر »

واقول لم يدع خمول بشار غير المؤلف والا فكتب الادب مفعمة بأخباره وقد كلامه وكيف يجهل رأس المحدثين باجماع كل متكلم في الادب وغاية ما قال ان ديوانه لم يجمع وكم من شاعر جمع ديوانه ولم يشتهر شهرة بشار

(٣) ومن الخطأ في الاستنتاج ادعاء المؤلف في صفحة (٩٩) انه لم يصلنا الا أخبار الرواة المقربين من الخلفاء أو الوزراء في بغداد كالاصمعي وابي عبيدة وليس ذلك بصحيح فان من كبار الرواة من اتصل بالخلفاء ومنهم من لم يتصل . فابو عمرو ابن العلاء شيخ الرواة والعربية لم يعرض علمه على خلفاء بني امية ولا خلفاء بني

العباس واليه كانت الرحلة من الآفاق وهذا الخليل بن احمد شيخ الاصمعي وابي عبيدة زهد في صحبة الملوك وتأديب أولادهم واخرج كسرة خبز يابسة لرسولهم وقال مادامت هذه في بيتي فلا حاجة لي فيهم

وهذا ابو زيد الانصاري ثالث الثلاثة (الاصمعي وابي عبيدة وابي زيد) كان ممن يقبل الاصمعي رأسه في حلقة درسه ويقول: هذا علمنا ومعلمنا منذ عشرين سنة ولم يعلم انه اتصل بخليفة وهذا خلف الاحمر أروى أهل زمانه للشعر مات ولم يتصل بخليفة

وابو عمرو الشيباني راوي دواوين العرب وجامعها من هذا القبيل وكذلك مؤرخ السدوس وابوعبيد القاسم بن سلام والسكري وغيرهم من مشاهير الرواة كانوا بمعزل عن الخلفاء

ومن الخطأ في الاستنتاج ماقاله المؤلف في صفحة ١١٣ « ويقال ان أول من علله (أي النحو) أي ذكر أسباب اعرابه عبدالله بن ابي اسحق الحضرمي المتوفي سنة ١١٧ والغالب في اعتقادنا ان تعليل الاعراب لم ينضج الا بعد نقل كتب الفلسفة اليونانية الى العربية » ولو قال المؤلف لم يفسد الا بعد نقل كتب الفلسفة الخ لكان أولى فقد كان الخلاف بين الكوفيين والبصريين في تعليل مسائل القياس اللغوي وليس هو الا تعليل اوجه الاعراب ولم يفقر هذا الجدال بين المصريين الا بعد انكباب الناس على الفلسفة وانصرافهم عن العربية

(٥) ومن ذلك مازعمه من ان ابراهيم بن المهدي لم ينصرف الى الغناء الا بعد استقلال المأمون في الخلافة قال في صفحة ١٣٦

« الغناء القديم والحديث »

« ولما زها العصر العباسي الاول في زمن الرشيد والمأمون واطلقت الالسنة والافكار أخذ المغنون يفكرون في تعديل الالحان واستنباط اسلوب جديد . وأول من تجرأ على ذلك ابراهيم بن المهدي اخو الرشيد — وكان من العظماء في الخلافة فلما استتب الامر لاخيه (كذا) المأمون انصرف هو الى الغناء كما انصرف خالد بن يزيد الاموي الى الكيمياء لما يئس من الخلافة »

والمعروف عند أهل التاريخ والادب ان ابراهيم كان منصرفا الى الغناء منذ أيام أبيه ، وكان في مدة اخيه مغلا من فحول الصناعة لم يفقه فيها الا الحق ، ومن أهل

زمانها من يقدم ابراهيم عليه لكثرة اختراعه وتصرفه ووقوف اسحق عند مارسمه الاوائل . ومناقضات ابراهيم واسحق وملاحتهما في الصناعة في مجالس الرشيد اشهر من ان نذكر بل كانت شهرة ابراهيم بالغناء من أكبر دواعي استيلاب الخلافة له . وبعد فمتى كان المأمون اخا لابراهيم أو أخا الرشيد وانما هو ابن اخي والد أخي الاول!

(٦) ومن خطأ الاستنتاج واضطراب الكلام واختلاله الفصل الذي كتبه المؤلف في السيرة النبوية فلا يكاد القارئ يستنبط منه حكما جليا فمن قوله منه :

« سيرة ابن هشام »

« واما سيرة النبي كاملة فأقدم ما وصل الينا منها سيرة محمد بن اسحق رواية عبد الملك بن هشام وقد اتفقوا على صحتها . (ثم قال) ويرى الناقد فيها كثيرا من القصائد يغلب على الظن انها دخيلة . وذكر صاحب الفهرست انهم كانوا يعملون الاشعار ويأتون بها الى ابن اسحاق ويسألونه ان يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل (ثم قال في ترجمة ابن هشام بعد ذلك باسطر قلائل) وهو الذي روى سيرة النبي من المغازي والسير لابن اسحق وهذبها ولخصها وهي الموجودة في ايدي الناس وترجمه في ابن خلكان ٢٩٠ ج ١ (ثم قال في ترجمة ابن اسحق بعد ذلك باسطر) ومن كتبه في المغازي اخذ عبد الملك السيرة التي نحن بصددها وقد طبعت هذه السيرة (اي سيرة ابن هشام) مرارا الخ (الى ان قال) واما النسخة الاصلية رواية (كذا) ابن اسحق فالمظنون ان منها نسخة في مكتبة كوبريلي بالاستانة »

فانت ترى انه (اولا) جعل سيرة ابن اسحق وابن هشام واحدة وابن هشام لم يكن الا راويا

ثم ذكر (ثانيا) اتفاق الناس على صحتها ثم ناقض هذا (ثالثا) بقوله طعن صاحب الفهرست في شعرها . ثم ناقض (رابعا) ما ادعاه اولا من كون السيرتين واحدة بقوله في ابن هشام « وهو الذي روى سيرة النبي من المغازي والسير (كذا) لابن اسحق وهذبها ولخصها (وقوله بعد في ترجمة ابن اسحق) ومن كتبه في المغازي اخذ عبد الملك السيرة »

ثم ناقض (خامسا) جميع ما تقدم بقوله « واما النسخة الاصلية رواية ابن اسحق فالمظنون ان منها نسخة في مكتبة كوبريلي الخ الخ

والحقيقة ان سيرة ابن اسحق سيرة كبيرة مستقلة عن سيرة ابن هشام وهي التي يطعن في شعرها ولم يتفق على صحتها . وان ابن هشام لم يكن هو الراوي لهذه السيرة

بل لخص سيرته النبوية من سيرة ابن اسحق وغيرها من كتبه في المغازي بحذف الاخبار الضعيفة والاشعار المطعون فيها، وهي المتفق على صحتها . واذا لاحظنا ان بين وفاة ابن اسحق ووفاة ابن هشام اكثر من ستين سنة وان اكثر حياة ابن اسحق كانت في المدينة واكثر حياة ابن هشام في مصر يتجلى ما قلناه فوق ما تقدم

﴿ الدعوى بلا دليل ﴾

للمؤلف دعاوى عريضة لم يقم عليها برهانا بل ألقاها على عواهنها يفصل فيها الناشئ ويعجب منها الشادي . فمن ذلك :

(١) ادعاؤه او نقله عمن يدعي في صفحة ٤٣ ان الخيال الشعري لا يزال في مكانه لم يترق عما كان عليه منذ القدم بالرغم من ترقي الجنس البشري في كل شيء وان الشعر العربي له شأن خاص في اسلوبه فقط . ثم ناقض ذلك بعد سطر واحد بقوله في ترقي الشعر الاسلامي « فضلا عن تأثير الاحوال الاجتماعية على الخيال الشعري ولا سيما الانتقال من البداوة الى الحضارة » ثم عقده فصلا كاملا عنونه هكذا :

« ٢ ـ للمعاني الجديدة باتساع الخيال الخ الخ » ثم فصلا آخر عنونه هكذا

« ٣ ـ للمعاني الجديدة بالاقتباس » (اى الاقتباس من العلوم الاجنبية) . وقال في أول هذا الفصل :

« تلك معان شعرية اقتضاها وسم الخيال بالحضارة الخ الخ »

(٢) ومن الدعاوى بلا دليل دعوى المؤلف (ص ١٠٧) ان ابن قتيبة اول من تجرأ على النقد الادبي فألف في أكثر فنون الادب المعروفة الخ الخ

يقصد المؤلف بهذا نبذة صغيرة ذكرها ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء فان اراد المؤلف انه أول من كتب في نقد الشعر فليس بصحيح اذ سبقه الى ذلك كثيرون منهم محمد بن سلامة الجمحي في مقدمة كتابه (طبقات الشعراء) الذي ذكره المؤلف في صفحة ١٠٨ عند كلامه على النسخة التي في المكتبة الخديوية حيث قال « وتدخل في ٢١٠ صفحات تبدأ بنقد الشعر الخ الخ »

وقبله الف ابو عبيدة كتاب نقائض جرير والفرزدق وقد ذكره المؤلف في صفحة ١٠١ وهو نوع من نقد الشعر . وان اراد المؤلف انه أول من لفت الناس الى فساد طريقة القدماء في بكاء الاطلال ووصف الاظعان فقد ناقض ذلك بقوله في صفحة ٤٣ « واصبح حديث الشعراء في مجالسهم انتقاد تلك الطريقة . وتقدم

ما بلغنا من هذا القبيل اجتماع مطيع بن اياس بفتى من أهل الكوفة فتفاوضه بشأن ذلك » ثم نقل عنه شعرا يعيب فيه على المتقدمين ونقل عن ابي نواس كثيرا من الشعر ينعي به على هذه الطريقة وادعى ان ابا العتاهية مثله في ذلك ابا نواس وهما فحلا الشعر المتعاصران فمن يأتي قلد منهما الآخر ؟ كما ادعى ان ابا نواس قلد الحسن بن الضحاك في وصف الغلمان ، والمؤلف معذور في كل هذا فقد نقل مقالة الشعر برمتها صحيحها وفاسدها من كتاب التاريخ الادبي للعرب لنيكلسن الانكليزي وكتاب بروكلمان وتلك الاغلاط مدونة فيهما

(٣) ومن دعاوى المؤلف في صفحة ٤٩ ان الشعر في العصر الاول من بني العباس قد بطل استعماله في العصبية كما بطل استدناء الخلفاء للشعراء بسبب انتصارهم لفريق على فريق

والحقيقة ان الشعر بقي يستعمل في العصبية طول العصر الاول العباسي وبعض العصر الثاني ، ولأبي نواس ومسلم بن الوليد ودعبل الخزاعي قصائد طنانة في الانتصار لليمانية على المضرية ، بل قد فتح الخلفاء العباسيون في العصبية بابا شرا من عصبية القبائل وهو تفضيل العباسيين على الطالبيين ومن شعرائهم في ذلك مروان ابن ابي حفصة ومنصور النمري وعلي بن الجهم وتصدى للرد على هؤلاء كثير من منتحلي الشيعة كالسيد الحميري ودعبل وديك الجن وغيرهم

(٤) ومن دعاوى المؤلف في صفحة ٥١ قوله « ولم يكن للشاعر العربي بد من الرحلة الى بلاد العرب لاقتباس اساليبهم »

فليقل لنا المؤلف ماهي رحلات ابي نواس ومسلم والحسن بن الضحاك ومطيع ابن اياس وحماد عجرد وابان اللاحقي الى بادية العرب ؟ ان الرحلة الى بلاد العرب كانت خاصة بالعلماء ورواة الادب واللغة مثل الخليل الاصمعي وابي عبيدة وابي زيد والكسائي وكان هؤلاء يسمون في اصطلاح قدماء المؤلفين ادباء فاشتبهت على المؤلف هذه التسمية اذ هو يعرف ان الشعراء ادباء أيضاً

(٥) ومن دعاوى المؤلف زعمه ان حوقة الفسق التي ألفها الجاحظ من حماد عجرد وحماد الراوية وابن الزبرقان وبشار بن برد ومطيع بن اياس ووالبة وبقية من ذكرهم كانوا ينظرون الى الدنيا من وجهها الاسود . قال في صفحة ٥١ بعد ان ذكر كثيرا من هؤلاء المجان والمتزندقة « وكان هؤلاء المتفاسقون ينظرون الى الدنيا من وجهها الاسود فلا يرون فيها حسنا ولا يعترفون لاحد بفضيلة نحو من يعبر عنهم الافرنج

بالبسيفست » واستدل على هذه الدعوى بمحادثة تنطبق على الاستهتار والمجون أكثر مما تنطبق على الفلسفة قال :

« ذكروا ان مطيع بن اياس مر بيحيى بن زياد او حماد الرواية وهما يتحادثان فقال « فيما انتما ؟ » (كذا) قالا « في قذف المحصنات » قال « أو في الارض محصنة تقذفانها ؟ » ويدل هذا من جهة أخرى على رأيهم في المرأة » أقول ان صح هذا القول فهو لا يدل الا على اعتقاد مطيع وحده ! بدليل ان يحيى وحمادا يعتقدان انهما يقذفان المحصنات لا الفاجرات اذ أجاباه عند سؤاله لهما بذلك وبالاولى يخرج عن هذا الاعتقاد من لم يحضر القصة من بقية القوم . وبعد فأي لزوم بين كلمة هذا الخليع الماجن وبين مبدأ أصحاب هذا المذهب ؟ على ان المؤلف افاض في وصف هؤلاء بانهم كانوا متكبين على الشراب والمنادمة لا يكادون يفترقون وكانت أموالهم شركة بينهم . فقوم عكفوا على الملاذ واللهو والطرب والمنادمة ومواساة بعضهم بعضا ينظرون الى الدنيا من وجهها الاسود ؟ ألا إن من ينظر اليها من وجهها الابيض بعد هؤلاء لقليل :

(٦) ومن دعاوى المؤلف قوله في حالة الشعر في العصر الثاني صفحة ١٥٧ « ٤ نبغت طبقة من الكتاب انتقدوا الشعر وروايته وكانوا يتناولونه في العصر السابق بلا تمحيص (كذا) فصاروا في هذا العصر ينظرون فيه ويتدبرون معانيه واساليبه بعين النقد ولا سيما بعد اطلاعهم على ترجمة أرسطو في نقد الشعر »

اقول : اكبر النقدة باعتراف المؤلف هما ابن قتيبة ومحمد بن سلام وهما ممن ينعى على المتفلسفين ويضائل من ينظر في كتب الفلسفة ومن قرأ كتبهم شهيد بذلك

(٧) دعوى المؤلف ان ابن المقفع كان يعرف اليونانية جيداً ولم نر في كتب الادب والتاريخ من ذكر هذا غير مؤلفنا في هذا الكتاب وفي كتابه (التمدن الاسلامي) الذي نقل معظم الجزء الثالث منه في كتابه هذا ، واذا تفضل حضرته علينا بمصدر هذه الدعوى كنا لحضرته من الشاكرين

واذا لم يكن لهذه الدعوى أصل فربما توهم المؤلف من قولهم : ان ابن المقفع ترجم كتب ارسطوطاليس المنطقية الثلاثة وهي كتاب قاطيغورياس ، وكتاب باري ارميناس . وكتاب انالوطيقا انه نقلها عن اليونانية . والحقيقة ان هذه الكتب وغيرها من كتب اليونانية ترجمت في زمن انو شروان الى الفارسية ولا ينكر المؤلف ذلك فنقلها ابن المقفع من الفارسية كما نقل غيرها مما ترجمه قبل الى الفارسية

(٨) ومن دعاوى المؤلف قوله في صفحة ١٣١ في ترجمة ابن المقفع انه اختص بالمنصور وكتب له . والكتب التي ترجمت لابن المقفع ليس فيها شيء من ذلك والذي لاحوال خدمة ابن المقفع وتصرفه الى ان قتل لايجد من بينها زمنا خدم فيه المنصور بالكتابة في ديوانه وانما كان مقطعا الى أعماله بالبصرة حتى مات بها

والذي أراه ان هذه العبارة (ثم اختص بالمنصور وكتب له) اخطأ المؤلف نقلها من عبارة ابن خلكان وهي بنصها

« وهو من أهل فارس وكان مجوسيا فاسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور الخليفتين الاولين من خلفاء بني العباس ثم كتب له واختص به » فالضمير في (كتب له واختص به) يعود حتما على عيسى بن علي لاعلى المنصور وحده اذ هو مذكور مع اخيه السفاح ووصف معه بوصف المثنى والا فلم نحكم بعود الضمير على المنصور لاعلى السفاح

(٩) ومن دعاوى المؤلف في صفحة ٢٠٧ في الكلام على طريقة ابي الحسن الاشعري في علم الكلام ان الناس عولوا على رأيه لما فيه من التسوية بين سائر الآراء

فكيف يعقل ان مذهبا يسوي بين آراء كل الطوائف وفيهم من يناقض مذهبه مذهب الآخر وغاية الامر انه اعتدل بين مذهبي المعتزلة والسلفية من أهل السنة

(١٠) ومن دعاوى المؤلف قوله في صفحة ١٢٩ عن المتوكل الخليفة العباسي « انه اهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم وأهله » فمن اين للمؤلف هذا الكلام ولو كنا كثيرا من يحمل كلام المؤلف على سوء النية لاطلنا في هذا المقام بما لايحمده . وكل هذه الفارة من جراء أن المتوكل رفع الفتنة بخلق القرآن ونهى الناس عن الجدل فيها بعد ان انهكت دينهم واخلاقهم وانه أمر أهل الذمة بلبس شارات تميز فيهم وانه صادر بعض الكتاب لخيانة ظهرت له منهم

(١١) ومن دعاوى المؤلف أن الانشاء في العصر الثالث العباسي قد صار له طريقة خاصة (سماها هو مدرسية) !! او سماها (كلاسيك) اخذا من اصطلاح الافرنج ثم اخذ يسرد شروطا للانشاء المدرسي بلغت نحو عشرة شروط جعلها خاصة بانشاء هذا العصر . والمتتبع لها يجد ان اكثرها لا يختص بعصر دون عصر وان اغلبها امور طبيعية او عادية في كل زمان ومن يرد ان يحقق ذلك فليراجعها في كتابه ان شاء

(١٢) ومن دعاوى المؤلف زعمه ان العرب نقلت محاضراتها عن اليونان . ولا بأس بايراد هذا الفصل من الكتاب تفكهة للقراء . قال المؤلف

« المحاضرات — هي علم من علوم الادب تحصل بها الملكة على ايراد كلام الغير بما يناسب المقام . وفائدته الاحتراز عن الخطأ في تطبيق الكلام المنقول عن الغير على المقام حسب اقتضاء المخاطبة من جهة معانيه الاصلية . وهو من الفنون الاجنبية يقال ان مخترعه رجل من اليونان (لعله يريد ايسوب صاحب الحكايات الخرافية الجارية على ألسنة الحيوان وغيره) قبل القرن الثالث للميلاد وقد اخذه العرب في جملة ما اخذوه عن الاعاجم في خلافة ابي جعفر المنصور على يد عبد الله بن المقفع عند ما ترجم كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية فكانت ترجمته هذه اساسا لهذا الفن لكنه لم ينضج الا في العصر الثالث الذي نحن في صدده . واشهر من الف فيه ابن حيان (كذا) التوحيدي المتوفى سنة ٤٠٠ الف كتابا سماه المحاضرات والمناظرات وقد تقدم ذكر كتاب الشريف المرتضى في هذا الموضوع . واشهر ما بايدينا من كتب المحاضرات كتاب (محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء) لابي القاسم الراغب الاصبهاني وسيأتي ذكره »

فاذا تأملت أيها القارئ الكريم في هذا الفصل تجد ان المؤلف نقل تعريف المحاضرات وفائدتها وهو بهذا التعريف فن عربي بحت كان يطلق قديما على عدة علوم من انواع التاريخ والاخبار والنوادر والسمر وهو كان بضاعة الادباء والندماء عند الخلفاء ومنه كامل المبرد وامالي القالي وكثير من كتب الجاحظ وابي حنيفة الدينوري وابي زيد البلخي وسهل بن هارون والنهاني

ومن أفضل كتبه العقد الفريد لابن عبد ربه وتسميته بالمحاضرات هي تسمية خاصة متأخرة والا فهو فرع من فروع الادب فكيف يكون مخترعه يونانيا وهو بحسب التعريف السابق ضروري في كل أمة

وانما يصح أن يكون أيسوب واضع الحكايات الخرافية . مع أن المنود سبقوه الى ذلك بل أثبت علماء الآثار أخيراً ان أسبق الناس لوضع الحكايات الخرافية هم قدماء المصريين ثم نقلها عنهم اليونان وان أيسوب اليوناني هو نفسه خرافي لا حقيقة له

والفصل المذكور على ما يرى القارئ يضارب بعضه بعض فضلا عن تحريف اسم ابي حيان التوحيدي فيه (بابن حيان) وفي الكتاب كثير من هذا القبيل

(١٣) ومن دعاوى المؤلف ان كتب السيرافي لم يصلنا منها شيء وعد منها كتاب النحويين البصريين . والكتاب في دار الكتب الخديوية في نسخة قديمة وأظنها في كتب الشنقيطي

(يتلى)